تفريغ المجلس (٠١٩)

"تتمة الباب الخامس - "ذكر بعض رؤساء البربر (مصيبسا / هميصال الأول / آذربعل / يوغرطة)[١].

[١٠ - مصيبسا MICIPSA (١٤٩ - ١١٩)]

مصيبسا بن مصينيسا جلس على عرش المملكة بعد أبيه. وكان اعطاه خاتمه ترشيحا منه لخلافته. وأوصاه وبقية أبنائه بمسالمة الرومان لما يعلمه من قوتهم[٢].

ولما وصل سبيون[٣] إلى قرطة ووجد مصينيسا قد توفي انتخب ثلاثة من أبنائه، فأجلس على كرسي المملكة مصيبسا وعين غولوسة قائدا عاما للجيش وعين منسشابعل وزيرا للقضاء، ولم يفعل سبيون

[١] إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، وم يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لهن وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ .

أما بعد: فإن خير الكلام كلام الله تعالى، وخير الهدى هدى نبينا محمد ﷺ وشر الأمور محدثاتها، وكلّ محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

فنواصل في قراءة هذا الكتاب في تاريخ الجزائر، انتهينا إلى الباب الخامس، ذكر المؤلف عنوانا (**في ذكر بعض رؤساء البربر**)، وذكرنا منهم تسعا وانتهينا إلى العاشر، وآخر من ذكرناه هو ماصينيسا.

[٢] هذا دهاء، قال: لا تدخل مع الرومان في حرب لأنهم أقوى منك وإنما عاملهم باللطف والسياسة.

[٣] سبيون الإفريقي هذا كان بينه وبين ماصينيسا توافق.

بذلك سوى ما يتفق ورغبة مصينيمسا[1]، حيث[2] إنه هو الذي رشح مصيبسا للملك وكان يعطي رئاسة الجند لولده غولوسة منذ كان حيا[3].

ولما سقطت قرطاجنة في يد الرومان بقي مصيبسا على عرشه لم يضره ذلك السقوط[4] ولم يزعجه جوار الرومان لحدوثه، ثم مات أخواه فاستقل بالملك سنة (١٤٥)، واعتاض عنهما بابنيه آذر بعل وهيمصال[5]. وكان لأخيه منستابعل ابن تلوح عليه آيات الفطانة[6] والشجاعة يدعى يورغوطة[7]، فأضافه إلى ولديه ونزله منزلتهما، ووجهه مرة سفيرا عنه إلى رومة[8].

كان مصيبسا مسالما للرومان[9] جريا على سياسة والده ووصيته، وكان يعين رومة في حروبها، ففي سنة (١٣٣) كانت[10] مشتغلة بحرب ضروس، فأعانها بجيش جعله تحت قيادة يوغورطة[11]، يقول بعض

---

[1] يعني يعلم أن أباه يرشح أن يكون مصيبسا على كرسي الملك.

[2] -في النسخة **(حيث أنه)** - الصواب **(حيث إنه)** بعد حيث تأتي الهمزة مكسورة، لأن حيث تضاف للجمل، لا تضاف للمفرد، وإذا فتحنا فـ(أنّ) وما دخلت عليه يصح أن تؤوّل بمصدر، فتصير حيث مضافة إلى مفرد، وهذا لا يصح إلا لغيّة قليلة.

[3] يعني ماصينيسا منذ حياته كان يرشح ماصيبسا للملك وغلوسة لرئاسة الجند والثالث للقضاء.

[4] لما استولت الرومان على قرطاجنة الذين هم الفينيقيون الذين نزلوا هذا الأرض، وإلا الفينيقيون عندهم أرضهم الأصل، فمصيبسا لم يتضرر لأنه مثل أبيه متوافق مع روما.

[5] يعني أتى في مكان غلوسة ومنستبعل بابنيه هو.

[6] ويقال الفطنة.

[7] لا يزال إلى الآن من يسمي ابنه يوغرطة.

يعني ماصيبسا وغلوسة ومنستبعل، جعل الأول الحاكم، والثاني على الجند، الثالث على القضاء، هذان الاثنان ماتا، ماصيبسا جعل ابنه آذربعل وهمصال مكان غلوسة ومنستبعل، وكانا منستبعل له ابن وهو يوغرطة فيكون ماصيبسا عما له، وفيه علامات الفطنة والذكاء والشجاعة، فأراد أن يستثمره.

[8] وهذه دائما تنتهي بأن يكبروا به ثم يخاف أن يأخذ منه المكان، فيدبر له المكيدة، وهذه لا تقع في أصحاب الحروب فقط، حتى في غيرهم، قد يهم الواحد بغيره ويريد أن يمكنه ثم يخشى أن يأخذ مكانه فيدبر عليه المكيدة.

[9] مثل أبيه.

[10] رومة.

[11] كأنه قال: يمكن أن يقتل ويهلك فنستريح منه.

المؤرخين: ولعله كان يريد من إرسال يوغووطة إلى هذه الحرب هلاكه والاستراحة منه، لأنه كان يخشى منه مناهضة أبنائه[1].

كانت مملكة مصيبسا تشمل ما بين ملوشات[2] غربا والسرت[3] شرقا، فهي عبارة عن وطن الجزائر اليوم وبعض تراب مراكش غربا، إن قلنا- كما هو الصحيح- أن ملوشات هو ملوية، وتمتد شرقا إلى تراب طرابلس لا ينقص منها إلا الولاية الرومانية الضيقة بعمالة تونس[4].

وقد سار هذا الملك بهذه الدولة الواسعة سيرة محمودة، ودبرها تدبيرا رشيدا، فعاش البربر تحت عنايته بسعادتهم عيشا رغدا[5]، لم يرم بهم في الحروب تلذذا بسعة النفوذ[6]، ولا كان يعتني بشخصه ويهمل شأن أمته[7]، فيعم الفقر ويقل الأمن[8]، ولا كان ظلوما جائرا، فيضطر الناس إلى الثورة، بل كان سياسيا حكيما وحاكما عادلا[9].

كان محافظا على عاصمته قرطة وعاملا لترقيتها وتحصينها، فجلب إليها أهل العلم والفن من الأجانب، وأصبحت على عهده مدينة علم وجمال ورفاهية، قال بارس في كتابه قرطة: "ويذكر المؤرخ إبيان أن مصيبسا حصنها[10] تحصينا لا يمكن معه لاحد أن يفتحها عنوة، وجلب لها طائفة من اليونان، وزاد في

---

[1] وهذا الذي كان، يعني خشي أن يموت ويصير ابن الأخ مع أبناء أخيه في منازعة.

[2] وهي منطقة ملوية أو المقطع هذه غربا.

[3] خليج بين قابس وطرابلس. يعني كان يملك هذه الأرض من جهة الغرب إلى الشرق.

[4] يعني قريبا كان شيئا من المغرب والجزائر وتونس.

[5] العيش الرغد هو الهنيء.

[6] عنده أرض اكتفى بها لم يحتج أن يزيد شرقا أو غربا، ولا أن يدخل مع غيره في حروب، فأرضه مطمئنة وعنده الأرزاق، والأرض تدر عليه، فيكتفي.

[7] ليس له قصور وبنايات ونساء وإماء وجواري وحلي وأموال ضخمة، وضرائب على الناس وإتاوات، وقتل الناس بالجوع، لم يكن كذلك.

[8] إذا صار الحاكم يهتم بنفسه، ومن حواليه، وهمه الوحيد هو إكثار وتنمية ثرواتهم، هذا يعود على الرعية بالفقر، وليس كلهم يصبر فيثورون ويختل الأمن.

[9] فاستتب له الأمر. ففي زمنه لم تكن ثورات والقلاقل في بلده.

[10] يعني جعل لها حصنا وهو جدار يحيط بها، وأماكن للدفاع.

تحصينها وخصبها حتى صارت يمكنها أن تجند عشرة آلاف فارس وعشرين ألف راجل، وبعد وفاته وانتصاب آذر بعل بها حاصرها يوغرطة ولم يتمكن من فتحها إلا بعد أن أضرت المجاعة بأهلها".

وقد كان مصيبسا نفسه مكبا على العلم، فاشتغل بالعلوم اليونانية، والرومانية حتى برز فيها، وأصبح[1] عالما مضطلعا بالفلسفة، وما أسعد أمة يحكمها ملك عالم غير متأثر بأمة أساتذته من الأجانب ولا مقدم لها على قومه[2].

[1] في نسخة (**تصبح**) الصواب (**أصبح**) تصبح بمعنى قام بفعل وقت الصبح، قال النبي ﷺ (من تصبح بسبع تمرات عجوة -من عجوة العالية أو عجوة المدينة- لم يضره سحر أو سم حتى يمسي) [البخاري٥٧٧٩، مسلم ٢٠٤٧]، الظاهر هنا (**وأصبح**)

[2] هذه كلمة جميلة من الشيخ مبارك الميلي رحمه الله. وقد مرت على الأمة مراحل كان حاكم الأمة الإسلامية ملكا وعالما وقائما فيها بالعدل والحق، ولا شك ولا ريب على رأس هؤلاء رسول الله ﷺ فهو الذي أقام أول دولة للمسلمين، وكان فيها ﷺ رسولا نبيا حاكما قاضيا مفتيا، وبعده الصحابة الكرام كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ؤ وأفضل ملوك المسلمين معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه كاتب الوحي وخال المؤمنين، أخو زوجة النبي ﷺ أم المؤمنين أم حبيبة ؤ بنت أبي سفيان رضي الله عنه، وبعده أيضا من العلماء الذين ملكوا عمر بن عبد العزيز كان حافظا للحديث، بل فقيها، وتذكر أقواله الفقهية في كتب العلم، كذلك غيره من العلماء كثر، كانوا أمراء أو ملوكا أو حكاما وهم علماء، منهم ابن هبيرة الوزير، له كتاب (**اختلاف الأئمة العلماء**) كتاب عظيم في الفقه مجلدين، يذكر مسائل الفقه، ما اتفق عليه الأئمة الأربعة، وما بينهم من الخلاف.

ومنهم كذلك قريبا الأمير الصنعاني محمد بن إسماعيل متوفى نحو سنة ١١٨٢هـ وكذلك منهم صديق حسن خان، كان ملكا، وهو عالم من العلماء، الإمام ابن حزم كذلك كان من الأمراء، ثم تفرغ للعلم، ما أسعد الأمة إذا كان حاكمها ملكا لها وعالما، لكنه غير متأثر بالذين علموه فيقدمهم على أمته.

قال (**غير متأثر بأمة أساتذته من الأجانب**) كأنه يشير إلى معنى (**ولا مقدم لها على قومه**) يعني كونه تعلم عند أقوام فيقدم تلك الأمة وأولئك الأقوام على قومه، هذه كلمة جميلة.

وهذا ما يدفعنا لما نقوله دائما وأبدا من لزوم العلم والتعلم والتعليم، لأن الذين يرشحون لتولي مناصب المسلمين هم منا، فإذا أحسنا تربيتهم وتعليمهم ونهجوا الطريق الصحيح بالتعلم، وانتهوا إلى درجات من العلم هذا أنفع للأمة.

ولما أحس بدنو أجله جمع ابنيه وابن أخيه[1] وأوصاهم بالاتحاد في السلم والتعاون على حفظ المملكة، حتى لا ينفرط عقد عزهم وتذهب دولتهم ضحية الشقاق[2].

وفي سنة (١١٩) أدركه حمامه[3] بعدما أدار دولته أحسن إدارة ثلاثين سنة[4]، وترك مملكته الواسعة في هناء واطمئنان ذات عمران مستبحر لم تنقصه الثورات الداخلية ولا عطلته الحروب الخارجية.

---

[1] آذر بعل وهمصال ويوغرطة.

[2] هذه وصية كبار العقلاء، الاجتماع، ونشر السلم، والتعاون، والعناية والحفظ، فإذا وقع الشقاق ينحل العقد ويذهب، وكما قال ﷻ {وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ}الأنفال٤٦، قوتكم واجتماعكم.

[3] الموت. والحَمام الطير المعروف، والحُمام يطلق على الشيء الحار ونحوه.

[4] يعني من ١٤٩ إلى ١١٩ ق.م.

[١١ - هيمصال الاول HIEMSAL 1 (١١٨)]

لما توفي مصيبسا لم يأخذ ابناه وابن أخيه بوصيته، فاختلفوا وتنازعوا أمرهم بينهم، ثم اصطلحوا واقتسموا الأموال وفرقوا وحدة المملكة: أخذ يوغورطة القسم الغربي منها من صلداي إلى ملوشات، واقتسم الأخوان الباقي بينهما وهو أوسع نطاقا وأوفر عمرانا[١].

لم يكن هذا الصلح مرضيا للمتنازعين، وإنما هو ظاهري وفي الباطن كل ينوي نقضه متى أمكنه النقض[٢]، ابنا مصيبسا يريان الحق لهما في إرث عرش ابيهما، فهما يعدان ما أخذه ابن عمهما ظلما، ويتربصان به غرة لقتله أو فرصة لحربه كي يسترجعا حقهما المغصوب؛ ويوغورطة يرى أنهما جارا عليه في القسمة، فهو لم يقبلها ظاهرا إلا بنية اكتساب قوة يستعملها- متى سنحت الفرصة- ضد ابني عمه.

كان هيمصال أقدر من أخيه[٣]، فكان يوغورطة يخشى منه ما لا يخشى من آذر بعل، فاستعمل الحيلة للاستراحة منه: لم يكن إلا أمد قليل حتى دس يوغورطة من قتل هيمصال في مدينة ترمدة من مدن ولاية رومة الحديثة، وذلك سنة (١١٨) فلم تطل مدته حتى تُتعرف سيرته في رعيته، وأعماله في العمران والحضارة وسياسته مع الرومان[٤].

---

[١] وهذا لا شك لا يرضي الجميع، لأنهما يريانه لا يستحق لأنه ابن عمهما وليس أخا لهما، وهو لا يرضى لأنهما أخذا أكثر منه.

[٢] هذه قاعدة في التعامل، المهم ارض بأن تأخذ حصة، وبعدها أكمل الباقي! أما أن تدخل في التنافس فمن الممكن أن تُحرَم ولا تأخذ شيئا، هؤلاء أصحاب فطنة، هو غير راض لكن سيدبّر، وهما كذلك أعطوه ليسكتاه، وبعدها يدبران له مكيدة لأنهما يريانه غير أهل.

[٣] آذر بعل

[٤] يعني قتل مبكرا فلم تعرف حالته، فلم يكن هناك من ينتصر له.

[١٢ - آذر بعل ADHERBAL (١١٨ - ١١٢)]

اتنصب آذر بعل ملكا بقرطة بعد وفاة والده واقتسام مملكته، وبعد أن قتل يوغورطة أخاه هجم عليه وأخرجه من عاصمته لأول معركة وقعت بينهما[١].

ذهب إذ ذاك آذر بعل الى الولاية الرومانية بأفريقية مستنجدا بواليها على ابن عمه فلم ينجده، فسار إلى رومة، ولما بلغها وجد بها رسلا من قبل يوغورطة، وجههم بأموال ليستميلوا إليه بعض عظماء الرومان، أبدى آذر بعل فصاحة نادرة ومنطقا محكما في الاحتجاج لنفسه وإظهار جور ابن عمه وخبثه، ولكن لم نجد عليه فصاحته عطف الرومان حيث إن ابن عمه اشتراهم بالأصفر الرنان[٢]، ولما ألح على رومة في طلب النظر في قضيته عين شيوخها عشرة من الخبراء تحت رئاسة لسيوس آبميوس ليفصلوا القضية[٣]، وكان هذا الرئيس يميل إلى يوغورطة، نظر الخبراء القضية بمرآة الأغراض[٤] فأنتج

---

[١] لأن يوغورطة كان يعلم، أن الآخر ضعيف في الحرب، يوغرطة هو ابن أخ ماصينيسا، وأصلا لم يكن له حقّ في أن يأخذ، وإنما قرّبه أهله لذكائه، وفطنته ثم انتبه إلى أنه سيكون خرطا وكان كذلك.

[٢] الذهب، وبه اشترى اليهود فلسطين من بريطانيا. ملؤوا خزائن بريطانيا بالذهب وأعطتهم فلسطين. وطلعوا بفكرة أن أصلهم من هناك، وأن آباءهم هم أصحاب تلك الأرض، وأنهم أولى بأن يرجعوا إليها، رب العالمين قال لهم ادخلوها فما أرادوا أن يدخلوها كيف تكون أرضهم؟ {يَاقَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ (٢١) قَالُوا يَامُوسَى إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا حَتَّى يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَاخِلُونَ (٢٢) قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٣) قَالُوا يَامُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ}المائدة٢١-٢٤، فهذا حالهم، ثم إنهم طردوا منها وأخرجوا، ثم إنه قد ملكها العرب المسلمون قرونا، وجاهدوا فيها وأكثر الناس بقاء فيها هم المسلمون ، فهم أولى الناس بها.

[٣] الأمم المتحدة في هذا الزمان.

[٤] بحثهم في الأغراض، نظروا إلى المصالح، كالأمم المتحدة نظروا في سوريا شمالا وجنوبا وشرقا وغربا فرأوا أن المصالح البقاء على تدميرها، لا تقوم لهم قائمة، تبقى سوريا مهدمة، محطمة، وإلا فمن يترك اليهود في تحرك، لابد من القضاء على كل الدول التي تشكل خطرا على اليهود.

هؤلاء الذين يجعلون على دول العالم ينظرون على حسب الأغراض، إذا كانت الأغراض تتوافق فبها ونعمت.

بحثهم خلاف ما يريد آذر بعل، وذلك أنهم أعطوه نوميديا الأصلية، وأعطوا يوغورطة نوميدنا الغربية وذلك سنة (١١٤).

صار يوغورطة بهذا الفصل أقوى منه قبله، وصار آذر بعل أضعف من حاله سابقا. وهذا لم يخف على الخبراء ولكنهم تعمدوا إعزاز جانب يوغورطة الذي سد مجرى الحق بصرة من الدنانير[١].

لم يكن يوغورطة ليقنع بشيء دون الاستقلال بمملكة عمه[٢]، ولم يكن هناك ما يقف في سبيله: البربر يحبونه، وأن ابن عمه ضعيف عن مقاومته، ورومة لا يصعب عليه استمالة رجالها[٣]، ففكر في إيجاد سبيل لبلوغ أمنيته وتحقيق برنامجه، ولم يشأ أن يقدم على حرب ابن عمه لأنه لا يجهل أن رومة لا تسمح له الاستقلال دون ابن عمه حيث إن سياستها تقضي عليها بالإكثار من الملوك البربريين وإذكاء نار المنافسة بينهم[٤].

رأى يوغورطة أن أحسن ما يبلغ به أمنيته التوقي من مشاغبة رومة عليه بملوك البربر، وكان يجاوره بوكوس الأول ملك موريطانيا، فسبقها إليه واستماله إليه قبل الدخول في حرب آذر بعل وتقرب منه بالمصاهرة فتزوج ابنته، وبهذه الوسيلة أمن يوغورطة ناحية بوكوس[٥].

إذ ذاك أخذ يغير على حدود مملكة آذر بعل كي يستفزه لحربه[٦]، ويتخذ ذلك سببا لحربه يقطع به معاكسة رومة له، ولكن آذر بعل تحمل تلك الغارات[٧] واصطبر لها لعجزه عن مقاومة يوغورطة وخيبته سابقا في الاستنجاد برومة، رأى يوغورطة استكانة ابن عمه فعزم على تنفيذ برنامجه وهجم

---

[١] القضية قضية أغراض ومنافع.

[٢] يوغرطة كان يريد أن يفصل البربر عن الرومان نهائيا. والآن يريدون أن يدخلوهم مرة أخرى ولا ندري لماذا!

[٣] لأنه يعرف روما وأنها تشترى بالمال، وله كلمة في ذلك قال: روما معروضة مباعة لمن اشتراها.

[٤] فإذن هو لم يحب أن يحرم ابن عمه، لأنه يعلم أن روما لا تقبلها، وهي تحبذ أن يبقى البربر دويلات لا أن تكون دولة واحدة قوية تنافس روما.

[٥] اشتراه، وأمن جانبه

[٦] يثير له المشاكل كي يستفزه، حتى يبدأ آذر بعل في الحرب، ويوغرطة أقوى منه يغلبه، فإذا بدأ حاربه، فإذا تدخلت روما يقول: هو الذي بدأ!

[٧] وهكذا يفعل الأعداء، واليهود الأخباث الملاعين، مكر وخديعة عظيمة.

عليه، واجتاز الحدود بجنود كثيرة، هنالك رأى آذر بعل لزوم الحرب، فتهيأ لها بما لديه من الجنود وخرج لملاقاة يوغورطة.

تقابل الجيشان ولم يتبارزا، وكان آذر بعل ينوي محاربة ابن عمه من الغد، ولكن يوغورطة كان أشد حزما وأمضى عزما، فأمر جنوده بالهجوم ليلا، فدارت الحرب بين الفريقين، وبعد قتال شديد انهزم آذر بعل وفر إلى قرطة[1]، فلحقه يوغورطة وحاصره بها، وكانت المدينة في غاية الحصانة بموقعها وعناية مصيبسا بتحصينها. وكان بها صناع وتجار إيطاليون. فتحزبوا لآذر بعل[2].

بلغ خبر هذه الحرب إلى رومة فلم يرق لها صنيع يوغورطة، وأرسلت اليه في رفع الحصار والكف عن محاربة ابن عمه مع ثلاثة من النواب، فقابل يوغورطة هؤلاء النواب مظهرا لهم احترامه لرومة، ولكنه لم يمتثل نهيها واستمر محاصرا لقرطة، فأرسلت إليه رومة رسلا آخرين، وتعين الاجتماع بعوتيقة، فذهب إليها، وأوعز لجنوده بتشديد الحصار[3]، ولما اجتمع برسل رومة اكتفى بإظهار احترامها أيضا[4].

---

[1] عاصمة بلد أبيه ماصيبسا، حصنها حصنا لا يمكن دخوله عنوة.

[2] أي صاروا معه.

[3] يعني أشار لهم وترك وصية بذلك.

[4] لكنه محاصر، نفس ما يحصل الآن، كوسوفو، والبوسنة سنة ١٩٩٤، ١٩٩٥، ١٩٩٦، أحاط بهم جند كرواتيا والصرب، وقتلوهم تقتيلا، تتدخل الأمم المتحدة -سنرسل مراقبين- فيأتي المراقبون ويلقاهم ذلك الأشيميط الحاكم في ذاك الوقت ويقول: نعم سنفعل، وسنفعل، وسنفعل، فيذهب وترجع المدافع ويرجع التقتيل، إلى أن أكملوهم، وبعد سنوات تدخلوا بالقوة والسلاح.

ومثل ما يفعل الآن في بورما يقتلونهم ويحرقونهم يذبحونهم يشنقونهم، والأمم المتحدة: سنرسل، وسنبعث، ورئيسها الموجود الآن أعطي جائزة نوبل للسلام، لكن ماذا يصنع الميت في يد غاسله كما هو المثل الدارج عندنا، وكذا في تركسان، والصين، وبعض الدويلات لا نسمع بها أصلا تزال من الخريطة نهائيا، والتي يسمع بها نسمع -قالوا- أرسلنا، وفيه مراقبة ..الخ

مثل هؤلاء لأن سريان القتل بين الطرفين ينفعهم على أن لا تكون قوة لجانب على آخر، لا تكون هناك قوة تظهر كما ظهرت في بعض الدول، لما ظهرت العراق شيئا قليلا، قيل لهم: عندكم، وعندكم، طيب ولما كانت مع إيران ما كان عندهم؟! وهكذا مع أفغانستان والهند وباكستان وغيرها. ونحن نقول كما يقال: اللَّهُمَّ اضرب الظالمين بالظالمين وأخرجنا من بينهم سالمين. نسأل الله أن يجعل كيدهم بينهم، ويقي المسلمين من شرهم.

دام حصار قرطة عامين[1] وبلغت المجاعة بأهلها مبلغها وعلموا خيبة رسل رومة في المفاوضة مع يوغورطة، فرأى آذر بعل ان يفتح الكلام مع ابن عمه، ففاوضه في رفع الحصار وأذعن لحكمه واستأمنه على نفسه، فأمنه ودخل المدينة، ولكنه خان العهد، فقتل ابن عمه ومن فيها من شيعته حتى الإيطاليين.

وهكذا انتهت حياة هذا الملك الذي يظهر من التجائه إلى رومة في كل ما يعرض له من الصعوبات أنه وقدته الحضارة[2]، فأصبح لا يريد الا استغلال جهود آبائه. وأن وطنا كالوطن البريري جعلته دولة قوية كرومة نصب عينها لاستعماره لا يصلح أن يكون على رأس حكومته إلا مثل يوغورطة شجاعة حربية ودهاء سياسيا[3].

[1] البوسنة عامين ونصف تقريبا. بعدها اكتشفوا مقابر جماعية كثيرة بالآلاف، ردموا تحت الأرض.

[2] المقصود القتل، يعني اغترارِه بها، وقدته، والوقود شدة الاشتعال، أو (**وقذته**) بالذال وهو القتل صرعا، {وَالْمَوْقُوذَةُ}، قال (لا تأكل فإنه وقيذ). فإما هذا وإما ذاك، ولعلها تراجَع.

هكذا لا يزال يلجأ إلى روما كي تنصفه حتى قتل.

[3] يعني مبارك الميلي يعطينا قاعدة هنا، ويقول: أنت يا آذر بعل لا تصلح، رومة دولة قوية، وجعلت دولة البربر نصب عينيها، فلا بد على الذي يكون على رأس هذا البلد، أن يكون صاحب شجاعة حربية، وصاحب دهاء، وفطنة وذكاء، وصاحب سياسة، هذا الذي لابد منه على رأس هذا البلد.

[١٣ - يوغورطة JUGURTHA (١١٨ - ١٠٤)]

يوغورطة بن منستابعل، يقول مرسي: إنه لغية[١]، كان فارسا من أشهر فرسان البربر وقائدا من أعظم قوادهم، وقد عرف له عمه مصيبسا مقدرته وغناءه فقربه إليه وأشركه مع ولديه في شؤون الدولة، ثم عرف جرأته وخشيه على ابنيه فوجهه ذات مرة قائد جيش بعثه إلى رومة إعانة لها في بعض حروبها، ورجا أن يهلك في تلك الحرب ويستريح منه[٢].

خاطر يوغورطة بنفسه في هذه الحرب وأظهر شجاعة نادرة، وعرف كيف ينجو بنفسه من الهلاك مع المحافظة على عظمته، فأعجب به الناس كلهم في هذه الحرب، وأحبه البربر حبا شديدا، ورجع الى وطنه يحمل لقب بطل عظيم، فزاده ذلك تأثيرا على البربر، واكتسب شرفه وصيته من حيث أراد عمه حتفه[٣].

كان هذا البطل العظيم متقمصا روح مصينيسا[٤] وعاملا على تحقيق برنامج كان ذلك السلف يعمل له. وهو الاستقلال بالوطن البربري في حدود مملكة أسلافه وطرد الرومان من إفريقية نظير ما كان ينويه مصينيسا من طرد قرطاجنة، فلما توفي عمه لم ير في ابنيه أهلية لتحقيق هذا البرنامج. لأنهما لم يعرفا رومة كما عرفها، فهما يخشيان سطوتها، ويريدان التمتع بلذة الملك تحت ظلها.

---

[١] هذه لم أفهمها.

[٢] التاريخ يعيد نفسه سبحان الله! لما يرون أحدا خطيرا، يرسلونه للمناطق الخطرة، تعرفون خط موريس، الشائك السلكي الكهربائي الذي كان جهة تونس، هو خط خطير جدا، قطعه شخصان، أحدهما حدثني! أرسل ليقطعه، ولما قطعه انفجرت شرارة قوية وكان معه أحد أعوانه فلما انفلت الشرارة أضاءت فرآه دما وقال: هذا قد مات، ففر العون، وهو أنجاه الله وخرج حتى وجدوه بعد غد أمامه، فصفعه صفعة أسقطه أرضا وقال له (تهرب يا الحلوف!) بالشرقية، هذا من قريب ولا يزال. فقد يرسل من يشوش على غيره قصد الانقلاب عليه، لهذا الأذكياء ماذا يفعلون؟ يقول: أنا ذاهب لمهمة ثم يذهب ولا يرجع، هذا التاريخ فيه عجائب.

[٣] "مصائب قوم عند قوم فوائد" أراد عمه أن يهلكه فإذا به يتفطن لهذا ويتقوى، ويفوز في الحرب ويرجع بطلا.

[٤] يعني جده.

ابتدأ يوغورطة في تحقيق برنامجه الاستقلالي بمنازعة ابني عمه على الملك حتى اقتسموه بينهم، ثم اغتال هيمصال، وتخلص لحرب آذر بعل حتى قتله سنة (١١٢) واستقل إذ ذاك بملك سلفه، وأصبح لا يد فوق يده.

لم تكن مقاصد يوغورطة في الاستقلال بوطنه وطرد النفوذ الروماني منه واضحة للرومان. فانه كان يسترها أحيانا بالخداع السياسي وأخرى باشتراء ذمم رجالهم، فلما دخل قرطة واستأصل منها شيمة ابن عمه من البربر والإيطاليين الذين هم في الواقع شيمة رومة اتضحت للرومان مقاصده وأدركوا أنه كان يسوسهم بالختل[١] والمراوغة، فعزموا على المبادرة لحربه وعدم إمهاله في هدم آماله.

لما عزمت رومة على حربه أرسل إليها ولده واثنين من خواصه لعرض طاعته[٢]، فلم يأذن شيوخها بمقابلة رسله ولا قبلوا طاعته لعلمهم أن ذلك خداع سياسي فقط لا حقيقة له[٣].

كان بوكوس[٤] مصافيا لصهره، فلما بلغه ما آل اليه أمره مع رومة خشي أن يكون له على ولائه له حد من غضبها، فمال عنه وأظهر طاعته للرومان[٥].

أرسلت رومة جنودها تحت قيادة بستيا، فجاء هذا القائد على طريق صقلية، ودخل في الحرب مع يوغورطة، واشتبكت القوتان بجهات باجة[٦]، وانتصر بستيا في تلك المعارك انتصارات باهرة، فازداد خوف بوكوس من غضب رومة، وأرسل إليها يؤكد طاعته لها.

---

[١] الخداع والخيانة. وإن كان فيه فرق بين الخداع والخيانة، فالخيانة هي البطش بمن أمنك، وكلفك أمانة ولم تف بها، وأما الخداع فهو المكر والتدبير سرا.

[٢] أي أنه يسمع.

[٣] مثل الآن أمريكا والروس وبريطانيا واليهود، قدم المسلمون والعرب تنازلات، وأقاموا بدولهم التظاهرات والفجور وغير ذلك، ما يقبل منهم هذا أبدا، يعلمون أن هذا أمر سياسي، لا يغيبون عن عين المراقب.

[٤] كان يتوافق مع يوغرطا.

[٥] يعني يقول له أنت فعلا زوج ابنتي ولكن الرومان شيء أكبر. فذهب وأظهر للرومان أنه يدين لها بالولاء والطاعة التامة.

[٦] تونس. وباجة تونس غير باجة الأندلس. أبو الوليد سليمان الباجي هذا من الأندلس متوفى سنة ٤٩٤هـ فباجة الأندلس غير باجة تونس، يفرقون بين هذه العبارات كما ذكر العلماء في التراجم.

كان يوغورطة يعتقد- عن بصيرة- أن رجال رومة خربوا الذمم لا يمتنعون من الرشوة[1]، فكان إذا أعجزته القوة التجأ إلى المال، فاستمال بهذا الوجه بستيا لما انتصر عليه، فتساهل معه هذا القائد في الصلح. واتفق معه على أن يأخذ منه أفيالا وخيلا وأنعاما وأموالا، وخرج يوغورطة من ورطة هذه الحرب بسلاح الرشوة، وذلك سنة (١١١)[2].

علمت رومة بالصلح فلم ترضه. وأرسلت إلى يوغورطة بالحضور ليشرح لدى مجلس شيوخها حقيقة هذا الصلح، ووجهت لسيوس كيوس إليه ليستصحبه معه، فذهب يوغورطة إلى رومة ولم يمتنع عن الحضور أمام مجلس شيوخها بعد ما كان محاربا لجنودها، ولما بلغها وجد حوله دسائس شتى، ولكنه أبرع رجل يحسن العوم في مثل هذه اللجج، فتوصل إلى استمالة نائب من نواب الشعب، ولما مثل بين يدي مجلس الشيوخ لم يكتف هذا النائب بالمحاماة عنه، بل أمره باحتقار التهم الموجهة إليه وعدم الإجابة عنها، وذلك لئلا يطالب بالبينة على صحة ما يقول، وهو ما لا يجد بجال[3].

لم يجد شيوخ رومة من استحضار يوغورطة أدنى فائدة[4]، ولم يضره هو حضوره بل استفاد منه، وذلك أنه كان لعمه غولوسة ابن يدعى مصيفا ذهب إلى رومة مطالبا بحقه في المملكة، ومشاغبا عليه، فدس له من قتله بواسطة بوملكار، ونجا من تبعته أيضا، وسهل لبوملكار طريق الفرار[5].

---

[1] الرشوة صديد ينخر في عظم الأمة، إذا كان البلد مبنيا على الرشوة، وكانت أعمدة البلد يؤثر فيهم الخيانة والرشوة، وتباع وتشترى ذممهم بالمال والأصفر الرنان، والنساء، فهنا ما عندك رجال، لابد أن يكونوا أمثال الجبال صناديد.

[2] أي عام بعد ما قتل آذر بعل.

[3] أرشاه بالمال، فهذا النائب ليس دافع عنه فقط بل وقف معه حتى يحسس مجلس الشيوخ أنكم ترمون بتهم لا أصل لها، لا ألتفت إليها ولا أحتاج إلى أن أجيب عليها، لأنه لو قال وصار يجيب يقولون: والبينة؟ وليس له بينة، فخرج منها

[4] خرجوا منها بخفي حنين

[5] يوغرطة داهية كبير.

بعد ذلك أمر يوغورطة بالخروج من إيطاليا، فقال عند خروجه من رومة كلمته الخالدة: "إن رومة مدينة مباعة لمن يريد اشتراها" وزاد بنجاته من بطش رومة بعد ما مثل بين يديها جرأة وأصبح لا حد لإقدامه.

بقيت صدور الرومان وغرة على يوغورطة، فأرسلوا إلى ألوس- وكان قائدا بأفريقية- يأمرونه بالهجوم على يوغورطة، وأنهم لم يرتضوا الاتفاق الواقع بينه وبين بستيا، امتثل هذا القائد وهجم على يوغورطة. ولكن ذلك الهجوم أعقبه انهزام، فإن يروغورطة هجم بجنوده على ألوس وجيوشه على حين غفلة وقد كان ألوس طامعا في فتح ستول (قالمة) وأخذ ما فيها من أموال يروغورطة ومؤنه وذخائر، خاب أمل ألوس وخضع ليوغورطة خضوعا شائنا لشرف رومة: إذ أجله عشرة أيام للخروج من نوميديا، وأبقى جنده تحت الذمة، وذلك سنة (١٠٩)، واعتذر لخيبة ذلك القائد بأنه كان ضعيف الرأي والوقت وقت شتاء، وأرى أن ضعفه إنما هو بالقياس إلى يوغورطة، وإلا فكيف تعتده دولته لقيادة حرب ضد رجل لا تخفى عليها مهارته الحربية؟[1]

ساء رومة انكسار قائدها وبقاء جنودها تحت ذمة من كانت ترجو أن يكون تحت ذمتها، فعين شيوخ دولتها مكان ألوس أخاه ألبينبوس[2]، فلم يجد هذا القائد أيضا نفعا لعجزه أو جهله أو تقصيره.

بعد هذه الخيبات التي كل واحدة منها تربو على ما قبلها جد جد الدولة، فاختارت من بين رجالها رجلا مخلصا لدولته نزيها عن الرشوة عارفا بمهمته الحربية من أهل الطبقة العليا، هذا الرجل هو ميتلوس[3]. وكان يوغورطة يعرفه ويعرف منه تلك الصفات، وكانت الدولة تريد باختيارها لهذا الرجل أن تغسل عنها عار تلك الانهزامات وتحافظ على شرف عظمتها وتؤيد سمعتها الرهيبة.

[1] يعني كان قويا وليس ضعيفا ولكن بمقارنته مع يوغرطة لا يقوى.

[2] كان مجلسا يحفظ الأمان على الناس على كثير من دول الجوار، وترسل مجلس الشيوخ للإنصاف، ثم صارت تجارب ما هو التبرير؟ لا تبرير، كما فعلوا في كثير من الدول في هذا الزمن.

[3] هذه الدول يربون الرجال بهذه الأوصاف يتعمدون ذلك، يربون جماعة الرشوة والمال، والمفتونين بالنساء، وجماعة لا تتزعزع، وكل واحد يستعمل وقتما يحتاج إليه.

نزل ميتلوس عوتيقة، فوجد الجنود قد ساءت حالتهم الأدبية وتمردوا عن الطاعة، فأخذ في تنظيمهم، وأراد يوغورطة- على معرفته به- أن يعجم عوده[1]، فأرسل إليه يلاطفه ويداهنه، فلم يكن بضاعته هذه المرة رائجة لإخلاص ويقظة هذا الروماني، ولم يكن هو يعتقد رواجها فاستعد للحرب.

جمع يوغورطة بكل نشاط جنوده وقسمهم إلى فرسان تحت قيادته ومشاة معهم الأفيال تحت قيادة بوملكار، وكان الجيش الروماني على قسمين أيضا: أحدهما برئاسة ميتلوس، والآخر برئاسه مريوس.

في سنة (١٠٨) تقابل الجيشان بشمال تبسة، بعدما استولى ميتلوس على باجة، واشتد القتال من الجانبين، وأخيرا دارت الدائرة على يوغورطة، وشعر بعجزه عن مقاومة الرومان بالقوة، فجبر عجره[2] ذلك بقوة دهائه، وأخذ يتقهقر بانتظام نحو الصحراء والقفر، وعلم البربر ضربا جديدا في القتال لئلا يجر عليه تقهقره انهزاما عاجلا: أوصاهم بعدم الكف عن إقلاق الرومان بالغارات من دون انقطاع، وأن لا يصطفوا لهم بل يكونون جماعات متفرقة تكر إذا رأت في العدو غرة وتفر ان رأت الفر خيرا، ومن هذا الحين تعلم البربر حرب الكر والفر، وبهذا الأسلوب الحربي الجديد لم يتمكن لميتلوس أن يتمادى في انتصاراته على يوغورطة.

---

[1] أي يغيره.

[2] أي عوّض ولاءم واندمل وجمع هذا العجز بقوة دهائه.